وصايا

رزنة صالح

أسنّة الضياء

بسم الله الرحمن الرحيم

وصايـــــــــــا

رزنة صالح

أسنّة الضيـاء

إهـــــــــــــــداء

إلى مـن يجـوب في فـلاة الحيـاة، حيـث تختـبر النفـوس صـلابتها، وفي لحظـة جهـاد تـتراءى لـه حـدود الضـعف. أَمسِـك زمـام نفسـك، واسـتعن بالله، ففـي الـركض نحـو النصـر لا مكـان للهزيمـة، ووجهتـك ليسـت إلا دار السـلام، حيـث الجنـة تناديك...

الوصية الأولى

يا بـني، أهمـس لـك بكلمـات تنبـع مـن جـوف حرصـي، علّهـا تصـل إلى روحـك قبـل أذنيـك. كلمـات نسـجتها التجـارب، وخطّتهـا الحكمـة علـى صـفحات أيامـي. إنهـا ليسـت مجـرد حـروف، بـل وصـايا تحمـل بـين طياتهـا مـا أرجـو أن يكـون نـورًا يهـديك في ظلمات الحياة، وعونًا لك في دروبها المتعرجة.

يا بـني، لا تظـن أن الابـتلاء مجـرد صـعوبة تمـر بهـا، أو أن تهالـك روحـك وسـقم جسـدك بـلا معـنى. كـل جـرح في أعماقـك، وكـل صـبر في نفسـك، هـو علامـة قـرب مـن الله. لا تظـن أن محاولاتـك للرضـا والصـبر قـد تـذهب سـدًى؛ بـل كلمـا سـعيت، وكلما ابتُليت وتألمت، كان ذلك تمحيصًا لإخلاصك.

الشـيطان، قـد يهمـس لـك بأن الله لا يُحبـك! لكـن الحقيقـة هـي أنـه كلمـا اقتربـت مـن الله، زادت ابتلاءاتـك؛ لأنهـا اختبـار لعزيمتـك. فهـل سـتبقى مُتمسـكًا بنـور الله؟ أم ستسقط في ظلمة القنوط وتستسلم لليأس؟

يا بـني، الجنـة لا تأتي بالراحـة، والنعـيم لا يُنـال بمجـرد التمـني، والخلـود لا يُحصـل بالهـروب مـن الألم. لسـت وحـدك مـن يعـاني؛ فهـذا الطريـق إلى الله يمـر عـبر الابـتلاء. فـلا يرحـل الإنسـان إلى الجنـة إلا بعـد أن يُختـبر ويُطهَّـر. أنـت في معركـة مـن أجـل تطهير نفسك؛ لأن الجنة لا تُعطى إلا لمن صبر واحتسب.

يا بـني، ألم تسـمع قـول الله تعـالى: ﴿أَحَسِـبَ النَّـاسُ أَنْ يُتْرَكُـوا أَنْ يَقُولُـوا آمَنَّـا وَهُـمْ لَا يُفْتَنُـونَ﴾؟ لـذلك، يختـبرك الله؛ لأنـه يحبـك. فـالابتلاء، لـيس عقـابًا، بـل هـو محـك يُقربـك إليـه. فـلا تستسـلم في ظلمـة القنـوط، بـل ابحـث عـن النـور في صـبرك واحتسابك.

واعلم أن بعض الابتلاءات حُب، وإن بدا لك غير ذلك.

الوصية الثانية

السـلام علـى قلبـك الطـاهر وروحـك السـامية، السـلام علـى سـعيك المسـتمر وخطواتـك الـتي تقـترب بهـا إلى الله. السـلام علـى تسـاؤلاتك المثقلـة تحـت جسـد الصمت...

تخنقـني الكلمـات يا بـني، فيخـذلني صـوتي الـذي يلـبس وشـاح الشـيخوخة. ولكـني أبيتُ إلا أن تخرج المفردات المرتجفة إليك، لتدفئ بوشاح شبابك.

يا بـني، سمعـتُ أنـك تستصـغر الأعمـال الصـغيرة الـتي تقـوم بهـا، وتتمـتم قـائلاً: "كيـف لهـذه أن تـدخلني الجنـة؟"، فتغـرق تسـاؤلاتك في كـأس مـن الحـزن. ولكـن، مـا ظنـك بربك؟ ألم تعلم أنه يحسب لك حتى الذرة إذا صدقت في نيتك؟

الأعمـال الـتي تأتي كالبنيـان المرصـوص، إن خلـت مـن النيـة الصـادقة لله، لا تسـاوي شـيئًا أمـام الأعمـال الصـغيرة الـتي قـد لا تراهـا أنـت. ولكـن، إذا أخلصـتها لله، فـإن الله يراها ويقبلها.

يا صـغيري، لا تـنسَ أن أعمالـك محاطـة بنيّاتـك. فحـتى إماطـة الأذى عـن الطريـق صـدقة، فكيـف بمـا دون ذلـك؟ اجعـل قلبـك معلقًـا بالله في كـل حركـة وسـكون، فـالله لا يُضيع أجر من أخلص له في عمله.

لا تستصـغر حـتى التبسـم، فإنـك يا صـغيري لا تـدري بأي عمـل تـدخل الجنـة. وإياك، ثم إياك، أن تؤجـل أعمالـك حـتى يبـيض رأسـك ويضـعف عظمـك، وتصـبح غير قادر على العمل. فإن للعمر حقه، وللزمان حقه، وللعمل حقه.

ولا تـنسَ يا بـني أن الفـراغ نعمـة عظيمـة. فـلا تلهيـك نفسـك وتقـول: "إن الأعمـال الـتي لا تُـرى في هـذا الفـراغ لا تحسـب."، لا والله، فـالفراغ لـه نصـيبه مـن السـعي، فمن عمل الصغير اليوم، غدًا بدأ بالكبير.

لا تُصـدِّق الكلمـات الفارغـة الـتي تقـول: "الفـراغ نقمـة علـى صـاحبه."، فقـد قـال النـبي ﷺ: «نعمتـان مغبـون فيهمـا كثـير مـن النـاس: الصـحة والفـراغ» [رواه البخاري]. أنت على حسب استخدامك لفراغك وصحتك يكون حالك.

أوصـيك –يا بـني– بالنيـة الصـادقة؛ فإنهـا تسـند القلـب، وتمـلأ الفـراغ، وتقـيم اعوجـاج العمل–بإذن الله–

الوصية الثالثة

هذه الدنيا جحيم، والقرب من الله هو الجنة الوحيدة.

يا ابنتي، ما تمسّك الإنسان بشيءٍ من الحياة إلا وتقطّعت أوتار قلبه، وما ترك كل شيء وتمسّك بحبل الله، إلا وازدهرت أوردة روحه.

الإنسان قلب، فإذا خلا قلبه من خالقه، كان كحجر ضائع في صخرة هشّة، لا أصل له ولا ثبات. وكل نار أشعلها الناس في قلبك، يُطفئها سجود صادق بين يدي الله.

يا ابنتي، خلقنا الله لأنه أحبّنا، فنفخ فينا من روحه، وأودع فينا نور الهداية، ثم بعثنا إلى هذه الأرض سفراء شوق نُكابد النسيان. نحن من تراب، لكن فينا قبس من السماء، وفي قلوبنا، وعد قديم وحنين لا يسكن.

غرّتنا زينة الدنيا، فنسينا أن لنا وطنًا لا تغيب فيه الشمس، ولا تنكسر فيه القلوب، ولا يرحل فيه من نحب. فإذا ضاقت عليك الأرض وغرقت في

الزحـام، ضـعي يـديك علـى قلبـك واسـأليه: أمـا كنـت تعـرف الطريـق؟ أمـا وعـدك الله بالرجوع؟ جنّتك هناك، في حضن لا يخذل، وسلام لا ينتهي.

يا ابنـتي، اخلعـي عنـك نياشـين هـذه الـدنيا، وتوضـئي بمـاء التوبـة، واعلمـي أن الحيـاة ليـل طويـل، وشـروقها هنـاك حـين تخلعـين جلـد الهـوى المثقـل، وتلبسـين ثيـاب القـرب. ذلـك القـرب يعيـد لبنـات العمـر شـبابه، ويرمـي علـى صـدر الأيام سـكينة دُفنـت تحـت ضلوع القهر.

مـا تلطـخ ثـوب الـروح بقهـر إلا كـان بـين يـدي الله نصـر عظـيم. ادعـي الله بالرضـا، فـإن رضـيتي صـار الصـبر هينًـا لينًـا، وإن خسـرت الرضـا خسـرت عمـود الصـبر الفقري.

يا ابنـتي، إن ضـاقت بـك الـدنيا، وأسـدل ظلمـة الليـل سـتارها علـى صـدر النهـار، وابتعـد الفجـر حـتى ظننـت أنـه لـن يعـود، وإن طـال الحـزن حـتى حسـبته لا يُنسـى، تـذكري الأنبيـاء، لم يُفـتح لهـم باب الفـرج إلا بعـد أن مـرّوا مـن أضـيق أبـواب الـبلاء، وثبتوا حين لا يثبت إلا من سكنت في قلبه السماء.

تـذكري زكـريا، إذ نادى ربـه وقـد بلـغ مـن الكـبر عتيًـا، فلـم يُعـطَ الولـد إلا وهـو في التسـعين. وتـذكري إبـراهيم حـين اختُـبر في أحـب الخلـق إليـه، ورأى في منامـه أنـه يذبح إسماعيل -عليهما السلام-، فكان الامتثال، وكانت التضحية، وكان الفرج.

يا ابنـتي، اعلمـي أن الله لا يختـبرنا إلا في مواضـع الحـب ليكشـف صـدقنا، ويُظهـر مـا إن كنـا مـن الصـابرين أم مـن المـدّعين. فـالابتلاء ميـزان، بـه يُعـرف الثابـت مـن المتذبذب، والحق من الزيف، والقول من الفعل.

واعلمـي أن الـبلاء لـيس عـذابًا، بـل اختيـار، إن أحبـك الله طهـرك، وإن طهـرك ابـتلاك. فاصـبري، واحملـي وجعـك كمـا يحمـل الـذاهب إلى الجنـة مشـقة الطريـق، فمـا بين الدنيا والجنة إلا صبر ساعة، ثم تُغلق أبواب التعب إلى الأبد.

الوصية الرابعة

يا بُـنيّ، الـدنيا ميـادينُ جِهـاد، إذا صـدَقتَ في السـير، سـهّل الله لـك الوصـول. فـالركب يُقـاس بالسـعي، والطريـق يُـوزَن بالصـدق، فـإذا ثبـت صـدقك، فُتحـت لـك الأبواب، وسار بك الطريق.

ولا تظـن أن السـير هـين، فـالطريق وإن كثُـرت فيـه العثـرات، فـإن عـين الله لا تغفـل عـن السـاعين، وإن بـدت خطواتـك بطيئـة، فثـق أن الله ينظـر إلى نيتـك قبـل سـرعتك، واعلـم أن الـذين وصـلوا قبلـك، لم يبلغـوا منـازلهم علـى فـراش الكسـل، بـل قُطّعت أقدامهم أشواك الطريق، وثبّتوا أنفسهم بالإخلاص.

يا بُـني، قلبـك ابـن خلوتـك، فـإن طابـت خلوتـك، أشـرق قلبـك، وإن أشـرق أضـاء لـك الطريـق حـتى في الظلمـة. اجعـل لـك خلـوةً تُطهّـر فيهـا سـريرتك، وسـاعةً تراجـع فيهـا نيتـك، فمـا طـاب الطريـق إلا لقلـبٍ متعلّـق بالله، يـذكره في كـلّ همسـة وخطـوة وسـكون. وإن لم تـرَ ثمـرةً في الـدنيا، فـلا تيـأس، فحسـبُك أن تقـف بـين يـدي الله وتقـول: "يا رب، حاولـت". أنـت مسـؤول عـن السـعي، لا عـن النتيجـة. فـلا تحـزن إن تأخّرت الثمرة، فالله لا يضيع أجر المحسنين.

يا بُـني، هـذه الأرض ليسـت دارك، ولا مسـتقرّك، إن لبثـت فيهـا يومًـا، فمـا لبثـت فيهـا عامًـا، منزلـك هنـاك، في الجنـة، حيـث تضـع عنـك أمتعـة الألم، ويُقـاس عمـرك بنتيجـة سـعيك. ولا تظـن أن طريـق الجنـة مفـروش بالزهـور، فقـد قـال النـبي ﷺ: «حُفّـت الجنـة بالمكـاره، وحفّـت النـار بالشـهوات»، فكيـف تُريـد أن تصـل دون أن تُكابد المكاره؟

يا بُـني، أنـت ابـن محاولاتـك، فكـن لهـا ابنًـا بارًّا، واسـعَ، فلـن تصـل إلا بالتعـب، فـالنوم علـى الطريـق مـن المهالـك. فـامضِ إلى الله، فكـل الطـرق دونـه تيـهٌ ووحشـة، ومـا أشرق القلب إلا إذا توجّه إليه.

الوصية الخامسة

يا بُـني، لا يبتليـك الله ليُعـذّبك، بـل ليؤدّبـك، ويطهّـرك، ويقرّبـك إليـه. فمـا كـان الرحمن ليسوق لك الألم عبثًا، وهو القائل: ﴿وَرَحمَتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ﴾.

يا بُـني، لـو شـاء أن يعـذّبك، مـا منحـك لحظـة تفكّـر، ولا فرصـة توبـة، ولا طُهـرًا يُغسـل بـه قلبـك. واعلـم أن الابـتلاء، باب مـن أبـواب التربيـة الربانيـة، يأخـذك مـن نفسك إليك، ومن غفلتك إلى نور الله.

تخيّـل يا بـني لـو تُـرك الإنسـان لنفسـه، لأوردتـه المهالـك، وسـاقته الشـهوات. ولكـنّ الله بلطفه، يوقفه على باب الألم، حتى يعرف قدر ضعفه، فيلوذ به، ويعود.

يا بُـني، إنـه لا يتركـك لتُعـذّب، بـل يتركـك لحظـة... لتعـود أقـرب، أنقـى، وأشـدّ تعلقًـا بـه. فمـا أجمـل تطهـير الله، ومـا أحـنَّ بـلاءه حـين يُهـذّب لا يُوجـع، ويُـربّي لا يُقصـي، ويُبني فيك رجلًا يعرف الطريق.

الوصية السادسة

أكتب لك هذه الرسالة يا بُني، وأنا أجلس في زاويةٍ مليئة بالضجيج، ضجيجٌ خاوٍ لا كلمة فيه، ضجيج الأفكار، والذكريات، وأيادي الواقع القاسية.

أكتب إليك، وأنا -في الحقيقة- أحقّ بهذه الوصية منك. أكتب إليك يا بُني، لأخبرك: ألا تجعل الحزن يسبق العمل، ولا تسمح للكلمات المؤذية أن تأخذ من روحك قبل أن تُقال، لا تتركها تُحنّطك كما تُحنّط المومياء، صامتًا، ساكنًا، منطفئًا.

أكتب إليك، بعد أن شاخ كل شيءٍ فيّ، وأنا ما زلتُ في أول شروقي. قبل قليل، سمعتُ قصة حرب المرتدين، والتي اندلعت بعد موت النبي ﷺ بشهر أو شهر ونصف فقط. تخيّل يا بُني، كم كانت الفاجعة على الصحابة؟ كم كان الوجع؟ كم كان القهر؟

ذهـب النـبي، ذهـب النـور، ذهـب السـراج المنـير، لكـنهم لم يتوقفـوا، بـل قـاموا، وحـاربوا، حـتى وإن كانـت ظهـورهم مكسـورة مـن الفقـد. لقـد ربّاهـم ﷺ علـى العمـل، على الجهاد، على الثبات.

لـذلك -يا بُـني-؛ إن أردتَ أن تسـلك سـبيلهم، وتمضـي في دربهـم، فـاعلم أن الحـزن لا يـبرّر التوقّـف، لا بأس أن تبكـي، لا بأس أن تـذوب جليـد عينيـك قلـيلاً، لا بأس أن تـترنّح كلماتـك، لكـن المهـم: أن تـركض، وإن ركضـتَ بشـكل جنـازة متحركـة، فـلا تقـف، وإن أصـبحت محاولاتـك طافحـة بالعظـام المكسـورة، فغطّهـا بالـدعوات، فمـا بلّـل الـدعاء شـيئًا، إلا وأزهَـر، وإن ذبُلـت زهـرة عمـرك في أرضٍ جافـة، فبلّلهـا بالتوكل.

يا بُـني، منـذ مـتى كانـت الحيـاة زهـرةً للمحـاولين؟ ومنـذ مـتى صـار الطريـق وردةً للراكبين؟ ومنذ متى خلعت الدنيا عنها ثوب الكبد وتبسمت للعابرين؟

إن لم يعينـك أحـد، وصِـرتَ وحيـدًا، وصـار صـدى عمـرك تنـورًا مـن الحـزن، وإن تلـوّن ثوبـك بأنـينٍ طويـل، وتحوّلـتَ إلى مـا أنـت عليـه، فـاذكر أن الأنبيـاء ابتُلـوا، فمـا بالـك بك وأنت أنت؟

أتنهـار مـن أول امتحـان؟ أم الثـاني؟ أم العاشـر؟ وغـدًا... حـين يأتيـك الابـتلاء الأشـد... مـا أنـت فاعـل حينهـا! يا قـرة عيـني، لا تنهَـر، لا تـدع الـدنيا، ولا الـنفس، ولا الهوى، ولا الشيطان، ولا الناس، ولا المسؤوليات تزيحك عن الطريق.

أنـت لا تسـعى لنفسـك فقـط، بـل تسـعى لـدينٍ وأُمّـة، ديـنٌ ضـحّى النـبي ﷺ وأصـحابه بأنفسـهم لأجلـه. إن أردتَ أن تحمـل المصـباح، وأن ترفـع رايـة الـدعوة، فـلا بـد أن تحمـل الألم أولًا، لا بـد أن تجعـل احتراقـك نـورًا يُضـيء لـك الطريـق، لا ظلامًـا يبتلعك.

الوصية السابعة

يا بُني، قد تتساءل: لماذا بدأتُ الحديث هذه المرة دون أن تسبقني بسؤال؟
لكن دعني أخبرك شيئًا، المرءُ منّا حين يطول به الطريق، يبحث عن الأنس يا بُني، وحديثك يُؤنسني ويبعث الدفء في قلبي، ولو لم تنطق.

جئتُ اليوم لا لأُجيب، بل لأُوصي: الحياةُ يا بُني، كلّما تقدّمتَ فيها، ازدادت وطأتها، واشتدّ عنفوانها، ستغدو الأيام أثقل، والألوان من حولك أكثر دُكنة، ستعرف أن الطفولة لم تكن مرحلة، بل نعمة، وأن البراءة لا تعود، وأن الراحة ليست على هذا الطريق.

فلا تظنّ أن السرور ينتظرك في منعطف العمر، ولا أن السكينة تأتي مع السنين، لو كانت الأعوام وحدها تُهدي الطمأنينة، ما كانت الجنة وعدًا، وما كانت الدنيا ممرًّا.

الدنيا يا بُني ناقصة، ناقصةٌ في كل شيء: في العدل، في الأمان، في الفهم، في الوفاء، في اكتمال الحب، لذلك؛ وُعدنا بالكمال هناك، في وطننا الحقيقي، حيث لا تعب، ولا حزن، ولا فَقْد، ولا وَهَن.

فاصبر، وازرع لما بعد هذا النقص، وذكِّر قلبك دائمًا: أن ما تنتظره خيرٌ مما فُقد، وأبقى مما فات.

الوصية الثامنة

يا بُـني، وجـدتُ لـك رسـالة قبـل أن تـذهب، كنـت قـد كتبـتَ فيهـا سـؤال واحـد: "كيـف يـتعلّم المـرء الصـبر؟ وكـم سـنة يحتـاج؟"، صـدقني، قـرأتُ تلـك الرسـالة كثـيرًا، ليس لأنني وجدتُ الجواب، بل لأني كنتُ أبحث عنه أيضًا.

الـنفس يا بُـني، عصـيّة، لا تظنّهـا تلـين بكلمـة، ولا تُـروّض بـدعوى، تحتـاج أن تمسـكها مـن عنقهـا، أن تجرّهـا كـل مـرة إلى موضـع الصـبر، وإن قاومـت، وإن صـرخت. درّبها كأنـك تُـدرّب طفـلًا عنيـدًا لا يريـد أن يـتعلّم، فـإن هـو تعلّـم، ارتحـتَ، وأراحك.

أي بُـني، الـدُعاء... لا تـنسَ الـدعاء، فالصـبر لا ينـزل علـى القلـب نـزول المطـر، بـل يأتي كحبات الرمل، واحدةً بعد واحدة، كلما رفعتَ يديك.

وتربيـة الـنفس صـعبة يا بُـني، لـذلك؛ أمسِـك عليـك نفسـك، وجاهِـد، ثم جاهـد، ثم جاهـد. وإن مُـتّ ولم تُصِـب، فـلا تحـزن، حسـبك أنـك مـتّ وأنـت تحـاول، وأنـت على الطريق. واسأل الله الرّضا، فليس كل صابرٍ راضٍ، لكن كل راضٍ صابر.

وإني أكتب هذه الكلمات، وأنا أتمسك باطرافها، وأقسم أني بحاجة إليها أكثر منك، لكنني أضعها في يدك، لعلها تكون لك عصًا في الطريق، إن ثقلت خطواتك يومًا.

الوصية التاسعة

أيا بُـني، إن استشـعارك لنعمـة أنـك عبـدٌ لله، وأنـه خلقـك مسـلمًا موحِّـدًا، هـو زاد قلبـك الـذي لا ينفـد، ونـور دربـك الـذي لا يخبـو. إنها النعمـة الـتي لـو جُعلـت الـدنيا كلهـا في كفـة، وجُعلـت في الكفـة الأخـرى، لرجحـت عليهـا، فهـي أعظـم منحـة وأكـرم هبـة أن تعـرف ربـك وتوحـده وتسـير علـى صـراطه المسـتقيم، في زمـن تتخطـف فيه القلوب الأهواء، وتغمرها الفتن، وتغويها الضلالات.

اثبـت، ثم اثبـت، ثم اثبـت علـى هـذا الطريـق، فـإن رسـول الله ﷺ قـال: «يأتي علـى النـاس زمـان، القـابض علـى دينـه كالقـابض علـى الجمـر». واعلـم أن القـابض علـى الجمر يتألم، ولكنه لا يتركه من يده؛ لأن تركه هلاك، والإمساك به حياة.

عزيـزي، اعلـم أن هـذه الحيـاة لـن تفـتح لـك ذراعيهـا، ولـن تفـرش لـك طريقهـا بالـورود، بـل سـتختبر صـدقك، وتمـتحن إخلاصـك، وتعـرض عليـك الـدنيا بكـل زخرفهـا لتغويـك عـن الطريـق. فمـن تمسّـك بالله، وسـار علـى درب الأنبيـاء، فـلا بـد أن يُبتلـى، ولا بـد أن يُصـاب، ولا بـد أن يـذوق مـرارة الطريـق قبـل أن يبلـغ حـلاوة الوصول. فإياك، ثم إياك، أن تتوقف.

إن عجـزتَ فتعَـرَّج، وإن أعيـاك المسـير فـازحف، وإن أثقلتـك الجـراح فـانبطح، لكـن لا تتوقـف. إن التوقـف مـوتٌ بطـيء، وخسـارة لا تليـق بعبـدٍ عـرف ربَّـه، وذاق حـلاوة الإيمان، وحمل أمانة الدين.

أنـت علـى صـراطٍ عظـيم، طريـقٍ سـار عليـه نـوح وإبـراهيم وموسـى وعيسـى -عليهم السّـلام-، ومُحَمَّد ﷺ، طريـق لم يُفـرَش بالراحـة، ولكنـه مكلّـل بالعـز، محفـوف بالرضـا، مـؤدٍّ إلى جنـات الخلـد. فاصـبر، واثبـت، وامـضِ، فـإن نهايـة الطريـق لقـاءٌ بـرب كـريم، يجزي الصابرين بغير حساب.

الوصية العاشرة

بينما كنتُ أخطو في أركان المنزل، وقعت عيناي على رسالة منك تنطق بصراع عميق، تقول فيها: "قررتُ أن أبدأ عملًا جديدًا، جاهدتُ، سهرتُ، بذلتُ كل ما أملك، حتى صار الأرق أخي الوفي! لكن النتائج التي حلمتُ بها لم تطرق بابي، ولم تُضِئ طريقي، فغمرني اليأس والإحباط".

كلماتك اخترقت روحي، فها أنا أكتب لك، ليس مجرد حروف، بل نبضًا يطرق أبواب القلب: يا بني، ارفع رأسك عاليًا، وانظر بعين الإيمان! هل نسيت أن كل عمل لله، مهما بدا خفيًا أو صامتًا، لا يضيع؟ هل نسيت أن السعي لله وحده هو النصر الحقيقي؟

انهض، ورتّب فوضى روحك، ولا تدع اليأس يستقر في قلبك، فإن توقف هذا العمل الآن، فهو بداية جديدة في مشوار العظمة. ربما يولد من رماد تعبك فجرٌ لا يتخيله العقل!

تـذكّر، يا بـني، أن الطريـق لم يُخلـق سـهلاً، بـل هـو معركـة تتطلـب ثـوب اليقـين والصـلابة. والمناضـل الحقيقـي هـو مـن يثـابر رغـم كـل العقبـات. سـهرك لم يـذهب سـدىً، وإن كـان لله، فهـو ذهـب النقـاء. وأنـت مسـؤول فقـط عـن السـعي، أمـا النتائج فهي بيد الله.

تأمـل كيـف ضـحى بـلال، وكيـف غُسـلت حبـات رمـل مكـة بدمـه، وكيـف اسـتمر خبـاب رغـم أن النـار سـالت دمـه، وكيـف نـوح -عليـه السـلام- دعـا وصـبر رغـم قلـة المستجيبين.

إن لم تحقـق مـا تريـد، فـاعلم أنـك قـد وصـلت إلى مرحلـة العظمـة، فالعظمـة ليسـت في الوصول فقط، بل في الإصرار والمثابرة التي لا تُقهَر!

لا تجعـل هـذا العمـل نهايـة محاولتـك، بـل لـيكن بدايـة صـناعة علـى عـين الله. فلـمّ شـعثك، وأشـعل في داخلـك نـيران العزيمـة مـن جديـد، فأنـت لسـت وحيـدًا، بـل مـع الله تسير، وإليه ستصل، ولا عزاء لليأس في قلب مؤمن!

الوصية الحادية عشر

يا بُـني، أكتـب إليـك وأنا أحمـل في قلـبي وِدًّا، وفي روحـي حرصًـا أن تصـلك كلمـاتي بطمأنينـة، لا بعاصـفة لـوم. منـذ أيام وأنا أرى ظـلال القلـق تكسـو ملامحـك، وأسمـع في حديثك أنين التائه الحائر.

جلسـتُ أفكـر: مـا الـذي يمـلأ قلبـك بالخـوف؟ ومـا الـذي يجعلـك تنظـر إلى الأرض وكأنـك تخفـي سـرًا؟ حـتى أيقنـتُ أن وراءك ذنبًـا سـتره الله بلطفـه، وأظلّـك برحمتـه، وأغلق أعين الناس عنك.

يا بُـني، إن الله بنـا رحـيم، لا يتركنـا نتخـبّط في الطريـق دون أن يرسـل لنـا إشـارات العـودة. وخوفـك لا ينبغـي أن يحجـب عنـك اليقـين؛ فـاليقين وقـود المسـير، ومـن سـار عمرًا بلا يقين أضاع قوته في منتصف الطريق.

لقـد سـترك الله وأنـت في لُجَّـة المعصـية، أفيفضـحك بعـد أن تبـت وعُـدت إليـه؟ أنـت تتعامل مع رب كريم، عظيم، يبسط يده للتائبين، ويحب الراجعين إليه.

الله لا يفضحك في أول زلّة، بل يمنحك الفرصة تلو الأخرى، وينقذك من نفسك مرات ومرات. فارفع عنك رداء القلق، والبس ثوب الثقة، واعلم أن ما سترك الله ليهينك، وإنما ليعلّمك أنه يحبك، وما أغلق عنك أعين الناس إلا ليفتح بصيرتك على طريق الوصول إليه.

لا تجعل ذئب الغفلة يلتهم قلبك، وزيّنه بالخبيئات الصالحة، وواجه الذنب بالحسنة، واملأ وقتك بما يرضيه عنك. ولا بأس أن يغتسل وجهك بدمع الشوق، فالدمع في رحاب الله يُنبت بساتين في القلب، لكن، ليكن بكاء محب مقبل، لا خائف مدبر.

واعلم يا بُني أننا جميعًا خطّاؤون، لكن الله وعد المنيبين إليه وعدًا كريمًا: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[الفرقان: ٧٠]. فلا تجعل ذنبًا ستره الله سببًا في انقطاعك عن حسنة يحبها الله، بل اجعلها بداية جديدة لطريق لا ينقطع حتى تصل.

الوصية الثانية عشر

صدقني يا بُني، وأنت تقرأ كلماتي، لا تظنني شخصًا كاملًا؛ فأنا مررتُ بالكثير مما تمر به الآن، لذلك؛ وضعتُ لك قلبي على السطور.

أكتب هذه الوصية بعدما رأيتك تغادر باب المنزل، وحين سألتُ عنك، قيل لي أنك ذاهب مع أصدقائك. سمعتُ حينها صوت موسيقى صاخبة تنبعث من السيارة التي جاءت إليك، وأنا أعلم أنك لست ممن يجرّ قدميه خلف هذه الأمور، لكنني أردتُ أن أذكّرك.

يا بُني، اختر صحبتك كما تختار طعامك؛ فالطعام يقوي الجسد، والصحبة تقوي القلب، وتحدد الدرب، وتوصل إلى الرب. الرفيق كالمر يتوغل في القلب، فاحرص على أن تبقى تربة قلبك نقية. الأرواح تُدفن في ظلمة الدنيا إذا أحاطتها بهرجة وسفاسف تبعدها عن خالقه، فلا تتشبث بما دون الله، فتقع!

واعلم يا عزيزي، أنك مسؤول عن نصح هذه الصحبة ما دمت بينهم، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تجعل ضيق الحياة أو الهروب من شدتها يقودك

إلى تـرك أسـاس مـن أسـس دينـك. مـا دمـت تـرى مـا لا يرضـي ربـك، فإمـا أن تمنـع، أو أن تترك، فأنت لست مجبرًا على السير خلف هواك.

وإياك أن ترتـدي قمـيص الفـراغ، وتـدع الهـوى يلتـف علـى عمـرك، فيسـلبك دون أن تشـعر. اقطـع الوقـت بمـا ينفعـك، وكـن ناصـحًا بالرفـق واللـين؛ فلعـل كلمـة صـادقة تنزع من قلب أحدهم الظلمة، وتلبسه ثوب الصبح، فيعود إلى ربه.

انصـح ولا تفضـح، وكـن واثقًـا أن الحـق يؤيـد صـاحبه إذا سـلك طريقـه بصـدق. واعلـم أننـا في زمـن يُـروَّج فيـه للباطـل، ويحـاول أن يُمحـى فيـه الحـق ليضـمر وينـزوي، فكـن أنت الحق الساطع، ودع عنك ما لا يرضي الله، يمتعك الله بما يرضيك.

الوصية الثالثة عشر

يا بُـني، هـذه هـي المـرة الثانيـة الـتي أكتـب إليـك فيهـا دون أن تطلـب مـني، أكتـب إليـك وأنا في ألم ومعـاناة. أشـعر بالغربـة في هـذه الحيـاة. لكـن مـا يـدفعني للكتابـة هـو خـوفي عليـك، وحرصـي أن تبقـى ثابتًـا علـى الطريـق، وأن لا تهـزك العواصـف ولا تنـال منك المحن.

يا بُـني، مـا يجـري في طريـق الحـق لـيس غريبًـا، بـل هـو سُـنّة الله في عبـاده، وقـد وقـع مثلـه في زمـن الأنبيـاء، حـين كـان الحـق يُحـارب ويُضـايق ويُطـرد مـن ديار أهلـه. واعلـم أن هـذا الابـتلاء لـيس إلا ليُميـز الله الخبيـث مـن الطيـب، ولـيُرى مـن يثبـت ومـن يتراجع.

إن الله إذا هـداك إلى سـبيل يقربـك إليـه، أو إلى بـرنامج أو عمـل يُعرّفـك بـه، ويقرّبـك إلى هـدي نبيـه ﷺ، فـذلك فضـلٌ عظـيم، ومنّـة يجـب أن تُحـافظ عليهـا كمـا تحـافظ على حياتك، وأن تتشبّث بها كما يتشبث الغريق بخشبة النجاة.

واعلـم أن هـذا الطريـق لـيس مفروشًـا بالـورود، بـل مفـروش بالـدماء والـدموع، وأنـك ستجد فيـه مـن يُعاديـك، ويُكيـد لـك، ويحـاول إسـقاطك، وخنـق دعوتـك، وتشـويه سمعتك.

اعلـم، ثم اعلـم، ثم اعلـم، أنـك ستُحارَب، وستُحارَب، وستُحارَب، والمهـم أن تكـون علـى يقـين أنـك علـى درب الأنبيـاء، فـلا تتوقـف، ولا تلتفـت، ولا تضـعف. إن كنـت موقنًـا أنـك علـى الصـراط المسـتقيم، فـلا تتوقـف، وإن جُرحـت فشـد علـى جرحـك وواصل السير، واركب الطريق وإن أحاط بك اللهب.

يا بُـني، إن الصـلاح في هـذا الزمـان غريـب، محاصـر بـين جـدران الفسـاد. والأمـة بحاجـة إلى رجـال ونسـاء، يحوّلـون علمهـم إلى عمـل، لا تـوقفهم ضـربات الإحبـاط، ويخرجون من سواد الليل كنجوم مضيئة.

لا تسـمح لأحـد أن يـدفن جثمـان سـعيك، بـل اجعـل وجهتـك إلى الله، واعبـده كأنـك تـراه، وتلمّـس الإحسـان في كـل عبـادة. واعلـم أن مـدد الله إذا نـزل فلـن يضيع، وأن النصر قد يأتي بأسباب لا تخطر على بالك، وقد ينتصر الدين حتى

بمـوت صـاحبه، كمـا في قصـة الغـلام الـذي قـال للطاغيـة: "ارمِـني، وقـل بسـم رب الغلام"، فمات، فانتشر الإسلام.

فلـتكن مُسـتعدًا أن تبـذل روحـك في سـبيل هـذه الـدعوة، لكـن الأهـم أن تبلـغ الرسـالة، وتـترك أثـرًا خالـدًا في الأرض يكتبـه الله لـك في السـماء. هنيئًـا لمـن خـتم حياته على هذا الطريق، وثبت حتى لقي الله.

الوصية الرابعة عشر

السلام على قلبك الطيب يا بني، السلام على مشاعرك المرهفة في زمنٍ غدا فيه الغدرُ عنوانًا... السلام على مسيرك المستمر، رغم كل العثرات، حتى وإن لم تحصد ثمارَ تعبك في الحال.

وجدتُ منك رسالةً، تحملُ في طيّاتها حيرةَ خيارين، تظنّ أن أحدهما شرٌّ صريحٌ، والآخر خيرٌ محتشم، فقلت لك: لا تَثِقلِ الأمر على نفسك، تجنّب الشبهات، فإن الشرَّ المبينَ، فاتركه وابتعد، فإن الله -برحمته- يُمَكِّنك من تمييز الظلام من النور.

يا بني، الخبرة ليست في التفريق بين الأبيض والأسود فقط، بل في أن تخرج بخير من بين الشريين. يا بني، كن مؤمنًا فطنًا، لا تغرق في بحار التيه، فالمؤمن الفطن هو من ينجو ويرسو على شواطئ السلام. وكما تتعلم دروب الخير، تعلم أيضًا مسالك الشرّ، وكما تعرف وجوه الأحبة، تعرف خداع الماكرين، لتنجو من مكرهم ومكر الزمان.

يا بـني، الحيـاة لوحـةُ لـونين، فـاحرص أن يبقـى الأبـيض ناصـعًا في قلبـك، وإن شـابت يـدك بالأسـود، فـلا تسـمح للأبـيض أن يخبـو، وكلمـا سـقطت، ارفـع يـدك إلى السـماء مستعينًا.

واحـرص علـى معرفـة سـبل أهـل المجـرمين، وهـذه ليسـت دعـوة للغـوص في بحـرهم، بـل حصـن تحتمـي بـه مـن هجمـاتهم القادمـة، فكـن واعيًـا، لا تجهـل مـا قـد يأتي، واسـتعد لما لا يُحتمل.

يا بـني، تمسـك بالقـرآن، فهـو النـور الـذي لا يخبـو، والسـراج الـذي يهـدي إلى بـرّ الأمـان، وبـه ينشـرح الصـدر، ويزهـر القلـب، ومـن تخلّـى عنـه، تاه في ظلمـات الـدنيا، وغـرق في دوامـة الضـياع والزيـف. هـو رحمـةٌ أنزلهـا الله علـى عبـاده، ومصـدر سـكينة اليقـين وطمأنينـة القلـب، فاجعلـه جليسـك ورفيـق دربـك، فـلا فـلاح إلا بـه، ولا نجـاة إلا باتباع هديه.

الوصية الأخيرة

والآن يا عزيـزي، هـا أنا أضـع عكـازتي وأجهـز عبـاءتي للمغـادرة. وقـد دوّنـتُ لـك وصـايا مُختلفـة، نسـجتها يـدي بشـيخوختها وتعرقهـا وكـبر سـنها. لـذلك؛ سأضـع لـك وصـيتي الأخـيرة، ليسـت مـن جـوف حـرفي، إنمـا مـن قرآننـا الكـريم. فاقرأهـا جيـدًا، وتـدبر معانيهـا، واقـرأ تفسـيرها، ولا تمـر مـن خلالهـا مـرور العـابرين، فإنهـا زاد لمـن فقـه، ونور لمن أبصر، وبوصلة لمن ضاع.

قـال تعـالى: ﴿وَإِذ قـالَ لُقمـانُ لِابنِـهِ وَهُـوَ يَعِظُـهُ يا بُـنَيَّ لا تُشـرِك بِاللَّهِ إِنَّ الشِّـركَ لَظُلـمٌ عَظـيمٌ ۝ وَوَصَّـينَا الإِنسـانَ بِوالِدَيـهِ حَمَلَتـهُ أُمُّـهُ وَهنًـا عَلـى وَهـنٍ وَفِصـالُهُ فِي عـامَينِ أَنِ اشـكُر لي وَلِوالِـدَيكَ إِلَيَّ المَصـيرُ ۝ وَإِن جاهَـداكَ عَلـى أَن تُشـرِكَ بي مـا لَـيسَ لَـكَ بِـهِ عِلـمٌ فَـلا تُطِعهُمـا وَصـاحِبهُما فِي الـدُّنيا مَعروفًـا وَاتَّبِـع سَـبيلَ مَـن أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَـرجِعُكُم فَـأُنَبِّئُكُم بِمـا كُنـتُم تَعمَلـونَ ۝ يا بُـنَيَّ إِنَّهـا إِن تَـكُ مِثقـالَ حَبَّـةٍ مِـن خَـردَلٍ فَـتَكُن في صَـخرَةٍ أَو فِي السَّـماواتِ أَو فِي الأَرضِ يَأتِ بِهَـا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطيـفٌ خَبـيرٌ ۝ يَا بُـنَيَّ أَقِـمِ الصَّـلَاةَ وَأْمُـرْ بِالْمَعْـرُوفِ وَانْـهَ عَـنِ الْمُنْكَـرِ وَاصْـبِرْ عَلَـىٰ مَـا أَصَـابَكَ ۖ إِنَّ ذَلِـكَ مِـنْ عَـزْمِ الْأُمُـورِ ۝ وَلَا تُصَـعِّرْ خَـدَّكَ لِلنَّـاسِ وَلَا تَمْـشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًـا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِـبُّ كُـلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ ۝ وَاقْصِـدْ فِي مَشْـيِكَ وَاغْضُـضْ مِـنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[سورة لقمان].

وأخـيرًا، أوصـيك أن تتبـع وصـايا القـرآن، وتـنغمس فيهـا، فإنهـا تصـنع منـك مسـلمًا سويًّا صالحًا، يقف عند الحلال، ويزجر عن الحرام.

واعلـم أن بنـان العمـر سـتذمر إن لم تكـن لله، وأن الآمـال المخنوقـة سـتتنفس إن وضـعت علـى باب الله. فخُـذ الكتـاب بقـوة، وانـدمج عليـه، ولـيكن آخـر عهـدي بك آياتٌ من الله.

والسلام لقلبك.

الخاتمة

مـــا ينفـــع النـــاس يبقـــى، ويبقـــى أثـــره في الأرض، فأســـأل الله أن يجعـــل عملـــي هـــذا خالصًا لوجهه الكريم.

أسنّـة
الضيـاء